النص التراثي وإشكالية القراءة

أ. قاسي محمد عبد الرحمان

الجامعة الإفريقية أدرار – الجزائر

لقد عملت جهود المدارس النقدية على اختلاف توجهاتها المذهبية القديمة منها والحديثة كالبلاغة الجديدة والشعرية والسيميائيات ومدرسة كونسطانس الألمانية على حصر إشكالية القراءة والوقوف عند أبرز المحطات وهي:

1- كيف نقرأ؟

2- ما هو النص؟

3- ما هو مصدر المعنى في النص؟

4- ما هو دور القارئ؟

5- كيف تتحدد أدبية النص؟

6- كيف تتحدد سلطة النص وسلطة القارئ؟

بهذه الأسئلة يتكامل فعل القراءة وتدرك العلاقة بين (النص– النقد)، ذلك أن طبيعة هذا الفعل تقتضي التدرج الجدلي عن طريق استحداث مقولات الاستكشاف (كيف) التي تحدد موضوع فعل القراءة ثم استقصاء مكونات النص (مصدر المعنى – خاصية التوال) إلى الوقوف على الأدوات الإجرائية (دور القارئ الذي يكون همه الإمساك بأدبية النص)، حيث يتسنى للقراءة الوقوف على بنية النص

وفك انتظامه الظاهري ثم إعادة بنائه طبقا لعناصر الجهاز النقدي الذي هو (فعل) القراءة ومعرفة مقومات النص من حيث هو بنية لغوية لسانية ارتبطت بوظيفة دلالية.

وقد حاولت جل القراءات تقصي الحقيقة السابقة ومنها: القراءة الأفقية. تحليل لا يستند إلى مدرسة معنية بل يعتمد معارف لغوية قديمة التحليل اللغوي. تذليل الصعوبات اللغوية مع التركيز على علاقة النص بالقارئ التحليل البلاغي. رد مواطن الجمال في النص من منظور بياني.

وجاءت بعد ذلك القراءات المرجعية التي تستند إلى مدرسة فكرية محددة ترجع إلى أصول التفكير اللساني.

الذي أدى إلى تحول جذري في المسار النقدي والممارسة التطبيقية التي تحاول تحديد العلاقة بين (النص القارئ القراءة).

إلى جانب ذلك حفلت الدراسات النقدية العربية الحديثة بمناهج ومصطلحات وضروب من القراءة المتنوعة التي منحت النص سلطة فاعلة تأثرا بالاتجاهات النقدية الأوربية، إذ بدا النقد العربي يولي اهتماما عن طريق التركيز على جانب معين في التجربة الأدبية منها:

1- الاتجاه النفسي الذي يركز على شخصية المبدع1

2- الاتجاه الاجتماعي الذي يهتم بالعوامل الاجتماعية التي أحاطت بالنص وأسهمت في إنتاجه.2

3- الاتجاه التاريخي الذي يركز على الخلفية التاريخية التي أنتجت النص الأدبي.3

4- الاتجاه الجمالي الذي يهتم بالمقومات الفنية للنص الأدبي.4

ومنذ ذلك تزايد الاهتمام بمفاهيم الحداثة والاتجاهات الألسنية والبنوية في النقد العربي ومحاولته وتحقيق التوازن بين عملية التأثر والتأثير، لكن عوامل التأثر الخارجية كانت أكثر فعالية في الدراسات النقدية العربية الحديثة، إذ كانت صدى الاتجاهات السائدة في النقد الأوربي والأمريكي ذات فعالية القراءة المركزية للتحليل الأدبي، وتوليد المعنى، وتباينت مستويات القراءة وتعددت وراح فعل القراءة يتوج الكثير من هذه الدراسات بخاصة تلك التي تعتمد على التطبيق ومنها دراسات كـ: "يمنى العيد – كمال أبو ديب – عبد الملك مرتاض – عبد الله الغذامي – أدونيس – محمد مفتاح – سعيد علوش – محمد بنيس – خالدة سعيد"

لقد كانت أغلب هذه الدراسات ذات منحى أسلوبي أو بنوي أو منحى آخر تفكيكي، إضافة الى الدراسات السابقة التي تتخذ منحى سوسيولوجيا أو انطباعيا أو نفسيا أو تاريخيا.

هكذا اختلفت مستويات القراءة وتنوعت ضروبها، كما اختلفت شروطها من اتجاه نقدي إلى آخر، فإذا كانت معظم الاتجاهات الجمالية والشكلية ركزت على النص الأدبي بوصفه بنية لغوية كما هو الحال عند الشكلانيين الروس، وتطبيقات ممثلي النقد

الجديد، فإن الاتجاهات الألسنية والبنوية الجديدة قد أعطت السلطة المطلقة للنص، إذ تعتبر النص مجموعة أنساق وأنظمة محددة وأن وظيفة القارئ تتمثل في الكشف عن سفرة النص وأنساقه الداخلية.

إن معظم المقاربات البنوية وبمختلف اتجاهاتها تسعى دوما الى مظاهر تشكل النسق البنوي والكشف عن درجة الانتظام والاختلاف بين مختلف مستويات البنية في النص الأدبي حيث يبدو القارئ خاضعا كليا لسلطة النص (يقوم القارئ بالاستجابة إلى سفرات النص، خالقا بذلك روابط مع نسق الخطاب الأدبي) كما يقول تزيفطان تودوروف.

لقد استطاعت الاتجاهات التي أعقبت البنوية أن تحد من سلطة النص المطلقة وبخاصة التفكيكية التي اعتبرت القارئ خالقا للنص، مانحا إياه دلالته ووجوده، فالنص لا قيمة له بدون القارئ فدلاله النص يحددها القارئ، في ذلك على مبدأ تعدد القراءة.

لقد اعترضت التفكيكية على مبدأ الأنساق البنوية المتشاكلة داخل النص في النقد وأكدت على نزوع النص لا إلى التناسق بل إلى التنافر والتفكك ((ليس هناك من نص متجانس، هناك في كل نص حتى في النصوص الميتافيزيقية الأكثر تقليدية قوى عمل هي في الوقت نفسه قوى تفكيك للنص، هناك دائما إمكانية لأن تجد في النص المدروس نفسه ما يستدعي على استنطاقه وجعله يتفكك بنفسه))5، ينطلق جاك ديريدا في قراءته النقدية من مبدأ الكشف

عن التناقضات التي يحويها الـــنص، والبحـــث عـــن المـــؤثرات أو التناقضات الداخلية التي تساهم عبر القراءة في تفكيك النص.

أما الأساس السيميولوجي في فهم فاعلية القراءة فيقوم على فهم طبيعة العلاقة الجدلية بين الدال والمدلول مؤكدة علـــى ســـلطة القارئ في إنتاج النص.

كما نجد الاتجاه التأولي (الهيرمونتيك) الذي يركـــز علـــى السياق السوسيوتاريخي بما في ذلـــك الـــسياق الفهـــم في محاولـــة لاستخلاص المعنى انطلاقا من افتراض وضعية فلـــسفية للمرجعيـــة كمقياس للتقيم، إضافة إلى مفهوم التناص الذي تقوم فيـــه القـــراءة النقدية بإعادة إنتاج النص على ضوء استحضار النصوص السابقة.

إن إعطاء السلطة المطلقة لفعل القراءة في منح الـــنص أدت إلى ظهور اتجاه نقدي جديد تزعمه النقاد الألمان حين أعلنـــوا عـــن ميلاد علم جمال خاص بالتلقي (نظرية التلقي) وقد أكـــد الناقـــد ولفجانج إيزر إلى أن النص يقرر الى حد كبير استجابة القارئ، وهو ما أكده الناقد روبرت ياوس على أن النص هو الذي يمدنا بـــالمؤثر المعين، إلا أن القارئ هو الذي يقوم باستكمال العمليـــة، وتـــصبح عملية القراءة ذاتها شكلا من أشكال الأخذ والعطاء، وحوار بـــين القارئ والنص.

ويرى روبرت ياوس أن المقاربات النقدية السابقة قيـــدت اهتمامها بثلاث عناصر إما متفاعلة أو مستقلة وهـــي (الـــسياق —

النص – المؤلف)، مهملة في ذلك القارئ والمتلقي فهذه المقاربات ((تتناول العمل الأدبي ضمن حلقة جمالية إنتاج الإنتاج والتصوير المغلقة، وهي إذ تفعل ذلك تحرم الأدب من بعد يعتبر مع ذلك ملازما لطبيعته الجمالية وكوظيفة اجتماعية، ألا وهو الأثر الذي يحدثه في الجمهور والمعنى الذي يمنحه هذا الجمهور، أي بعد التلقي))6، أما إيزر فيخلص إلى القارئ وعلى العكس مما هو ساند، غالباً ما يعكس ما يذهب إليه الناقد وإن المعنى لا يمكن إن يكون إلا صورة، أي أنه لا يوجد بالضرورة في ثنايا العمل أو بين سطوره وهو ما يجب على القارئ أن يغير من موقفه اتجاه العمل، بضرورة التخلي عن الفرضيات التي ينطلق منها ليتمكن من تمثل الواقع الذي يرمي إليه معنى العمل.

يقف إيزر على الفارقة المتمثلة في كون النقد الجديد بمختلف آلياته يركز على بنيات العمل في وظائفها وعلائقها، لا على حقيقته ومعناه، غير أن الأشكال المطروحة حسب إيزر ليس هي المعايير الكلاسيكية، بين تكون المعنى، ولذلك فإن الانتباه يجب أن لا ينصرف إلى المعنى الذي يوصله التأويل إلى القراء ولكن إلى شروط وبناء وتكون المعنى.

إن هذه المعادلة هي إحدى القضايا التي تثيرها مدرسة كونسطانس الألمانية، العلاقة بين القارئ والنص هذه المعادلة التي ظلت بعيدة عن الاهتمام في حقل القراءة المستهلكة.

1- القراءة الظاهراتية.

2- القراءة التماهي العاطفية.

3- القراءة التحليلية التركيبية.

وقد عمدت هذه القراءات دائما في وجودها على تصور مـــا للخطاب الأدبي، بالرغم من المحاولات النقدية ذات البعـــد المعـــرفي المتميز، كدراسة الأسطورة وقاعد القرابة والطوطمية عند كلود ليفي شتراوس واللاوعي عند جاك لاكان، ونحو السرد عند بارت رولان والنظام المعرفي (علم آثار المعرفة) عند فوكو.

كل هذا أدى بمدرسة كونسطانس الألمانية (جمالية التلقـــي) إلى إعادة نظر جذرية في مناهج تاريخ الأدب منهجاً بديلاً يـــشكل تحديداً لنظرية الأدب، يقوم هذا المنهج على المبادئ الإجرائية التالية:

- تحويل منظور البحث من جمالية الإنتاج والتصوير التقليدية التي تبنى عليها مقاربتا المحايثة والماركسية إلى جمالية التلقي، أي الأثر الذي ينتجه العمل الأدبي في القارئ بحيث تكون العلاقة بين الـــنص والمتلقي حوارية.

- تحديد نوعية وشدة الأثر الذي يحدثه العمل في القارئ بقدر انزياح العمل عن معايير القارئ الجمالية وتغييره لأفق انتظاره، تزداد القيمة الجمالية للعمل، فالمسافة الجمالية بين أفق الانتظار والعمـــل الأدبي الجديد خير مقياس يحتكم إليه لتحديد جمالية العمل.

- الكشف عن طبيعة الفهم للقراء المتعاقبين بإعادة تشكيل أفق الانتظار الخاص بهم، يساعد على إظهار الاختلاف في التأويل لفهم العمل الأدبي، وكذا تعدد الدلالة بتعدد التلقي، وهذا ما يسمح بالتأريخ لهذا ما يسمح التلقي من حيث شكله ودلالته.

- ومن أبرز ما ترتب عن جمالية التلقي هو رد الاعتبار للقارئ على حساب الذات المنتجة وسياق الإنتاج بحيث لا تعتبر النص متضمنا لمعنى مطلق ونهائي، بل محتضناً لمجرد إمكانية دلالية إلى مساهمة القارئ وحواره.

- إضافة إلى ذلك دعوة الناقد والمؤرخ الأدبي إلى الكف عن التساؤل عن معنى النص وعن أوليات اشتغاله الداخلي (السيميولوجيا - البنوية) وإلى التساؤل عما يحدث للقارئ عند القراءة، أي حين يحقق إحدى الإمكانيات الدلالية، فعلى الدارس أن يلتفت في النص إلى ما يسمح بتأسيس ذلك الحوار بين القارئ والنص.

- ترى جمالية التلقي أن فعل القراءة هو الذي يخرج العمل من حالة الإمكان إلى حالة الإنجاز، وإن الدلالة تحتاج إلى دينامية القراءة لتخرجها من نطاق الكمون إلى نطاق التحقق.

وهذا يدل على أن العمل الأدبي لا يحمل في ذاته دلالة جاهزة وثابتة ونهائية، بل يكتسب دلالة جديدة لدى كل قراءة

جديدة تكون بنية النص وبنية فعل القراءة مترابطان بشكل وثيق كما يقول الناقد الألماني أيزر.

فبالقراءة يتشكل معنى النص في تجدده الدائم، معنى متجددة هو نتيجة تطابق واتخاذ عنصرين: أفق الانتظار المفترض في العمل وأفق التجربة المفروض في المتلقي.

إن نقد النص يتطلب قراءة نوعية مغايرة لتلك التي ألفناها، قراءة تصدر عن تصور شامل للمعرفة، وتتوسل بأدوات نقدية ومعرفية لم تكن ميسرة للقدماء الذين رأوا في فعل القراءة وسيلة لاكتساب المعرفة الجاهزة، لا يزيد فيها دور القارئ على استيعاب المقروء.

لقد تحول فعل القراءة من استيعاب إلى قراءة حوار مع النص، فمفهوم القراءة المعاصرة مقترن بإعادة إنتاج المعرفة، معتمدا في ذلك على التأويل، حيث لا تقل فيه قيمة الذات القارئة عن الموضوع المتناول، تصبح معه النصوص قابلة لمستويات متعددة من القراءة تختلف باختلاف الذات القارئة وشروطها التاريخية

إن التأكيد على العلاقة بين النص والقارئ والتفاعل بينهما أمر ضروري من حيث المبدأ في نظريات التلقي الحديثة لاسيما عند مدرسة كونسطانس الألمانية باعتبار النص (الشعري) بنية لغوية جمالية، فوحدته لا تقبل التجزئة أو التحليل إلى شكل ومعنى فالمعنى شكل تحول إلى معنى، والشكل معنى تحول إلى شكل كما يقول

إيزر، وهذا ما تؤكده المقاربات الحديثة ابتداء من أصحاب النظـــرة الشكلانية الذين رفضوا ثنائية تقـــسيم العمـــل الأدبي7، احتـــذاء باللسانيات التي أقامت جوهر تعريفها للظاهرة اللغوية على مفهـــوم العلامة من حيث هي دليل.

الهـــوامـــش:

1- ينظر محمد النويهي: نفسية أبي نواس.

2- ينظر يوسف اليوسف: الغزل العذري.

3- ينظر طه حسين: تاريخ الأدب العربي.

4- ينظر مصطفى ناصف: دراسة الأدب العربي.

5- جون ستروك: البنيوية وما بعدها من لفي ستراوس إلى جاك دريدا – تر: محمد عصفور عالم المعرفة – فبراير 1996 – ص: 228.

6- روبرت هولب: نظرية جمالية التلقي – تر: إسماعيل – نادي الثقافي – جدة ط1/1994 ص 121.

7- ينظر الشكلانيون الروس: تر: إبراهيم الخطيب.